فلسفة

الأخلاق المدنية

قصة نشوء الأخلاق المدنية في الحضارة الغربية



د. عبدالرحمن بن خالد الخنيفر

هـذا الكتـاب صـادر عـن مشـروع «١٠٠ كتـاب» الـذي تقـوم عليـه دار أدب للنشـر والتوزيـع بدعـم مـن الصنـدوق الثقافي السعودي.

لوحة الغلاف للفنان:
عبدالعزيز العواجي

الآراء الواردة في الكتاب
لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

ح دار أدب للنشر والتوزيع، ١٤٤٤ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخنيفر، عبد الرحمن بن خالد.

الأخلاق المدنية: قصة نشوء الأخلاق المدنية في الحضارة الغربية./ عبد الرحمن بن خالد الخنيفر. - ط١. - الرياض، ١٤٤٤هـ

٦٤٠ ص؛ المقاس ١٤ × ٢١ سم

ردمك: ٥-٠٤-٨٤٠٦-٦٠٣-٩٧٨

١- الأخلاق أ. العنوان

ديوي ١٧٠ ٩٨٩١ / ١٤٤٤

رقم الإيداع: ٩٨٩١ / ١٤٤٤
ردمك: ٥-٠٤-٨٤٠٦-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ = ٢٠٢٣م

info@adab.com adab.com @adab

الملخص التنفيذي

أصل هذا البحث أطروحة علمية تقدَّم بها الباحث لنيل درجة الدكتوراه في مسار فلسفة القيم، أزهقت منه بضع سنين لجرد مئات المصادر والمراجع التاريخية والفلسفية والثقافية عن الحضارة الغربية. جاءت في (٨٢٠) صفحة، ورغبة في تقريب البحث لعموم القرّاء المنشغلين بسؤال الأخلاق والدين، اُختصرتْ لنحو النصف. وصُدِّرتْ بملخص تنفيذي يعتصر خلاصة ما انتهى إليه البحث، صالح لقادة الفكر ومدراء المؤسسات الثقافية ممن لا يجدوا وقتًا كافيًا لقراءة نص فكري إلا على متن الرحلات الطويلة. أملًا أن يكون مفتاحًا لفهم الجذور الثقافية والدينية والفلسفية لتشكل الأخلاق المدنية في الحضارة الغربية.

وقد تضمن الملخص أسباب نشوء وتطور الأخلاق المدنية في الحضارة الغربية وانفصالها المبكر عن الدين، وأنماط هذا الانفصال، والمرجعيات التي تستند إليها، والغايات التي تنشدها، ولفيفًا من الإضاءات الحضارية والنقاشات الفلسفية.

١/ أسباب نشوء الأخلاق المدنية في الحضارة الغربية.

تتلخص أسباب نشوء الأخلاق المدنية في الحضارة الغربية بما يلي:

١. أنَّ حضور الدين في أساس الحضارة الغربية (العصر اليوناني) ليس عميقًا، ولا مهيمنًا على كافة جوانب الحياة كما هو الحال في الحضارات الشرقية عمقًا وحضورًا، ولذا كان تأسيس أخلاق مدنية ممكنًا بعيدًا عن التصورات الدينية.

٢. أنَّ مفهوم الدين في الحضارة اليونانية لم يُبنَ على تصورات أخلاقية تُجلُّ الآلهة وتُقدِّسها كما في أغلب الديانات، بل بُني على إبراز الفساد الظاهر في سلوكهم تجاه بعضهم البعض وتجاه البشر، ما أحدث شرخًا في التصورات المثالية عن الآلهة، وغدا مثلبة في سلوكهم تذكر على لسان الشعراء على المسارح، والفلاسفة في المدارس، يُستخلص منها أنها ليست مرجعًا للأخلاق.

٣. بدأ تصور الأخلاق في الفكر الفلسفي الغربي تصورًا نسبيًا لا مطلقًا، فليس هناك حقائق أخلاقية ثابتة؛ فالخير والسعادة واللذة العقلية والجسدية كلها دوافع للفعل الأخلاقي في الفكر الأخلاقي اليوناني.

٤. أنَّ الفلسفات الأخلاقية خلت من الإلزام الديني، فلا دور ظاهر للدين في الإلزام الأخلاقي كما في الحضارة المصرية القديمة، ولم يتم توظيف الدين لصالح الإلزام الأخلاقي توظيفًا علمانيًا إلا نهاية القرن الثامن عشر.

٥. أنَّ القانون (وهو مُكوِّن مدني) حلَّ تدريجيًا محلَّ الدين في الإلزام الظاهري بالأخلاق (السلوك) منذ العصر الروماني حتى أصبح ثقافة مدنية مطلع القرن العشرين.

٦. أسهمتْ -المسيحية بطريقة غير مباشرة- في نشوء الأخلاق المدنية لسببين، هما:

أولًا: إفراغ المسيحية من الشريعة اليهودية، وإحلال القانون الروماني عوضًا عنها.

ثانيًا: محاكاة فلاسفة المسيحية في العصور الوسطى الدرسَ الفلسفي اليوناني، بالرغم من ممانعتهم تدريس كتاب «الأخلاق إلى نيقوماخوس» لأرسطو.

٧. خلو المسيحية من التشريعات المدنية والجنائية سمح للنخب المدنية الرومانية بسدِّ هذا النقص، فنشطت حركة تشريعية رومانية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين بدعم من الإمبراطور البيزنطي جستنيان الأول [٥٢٧-٥٦٥م]، شكَّلتْ على إثرها أخلاقيات الفضاء العام بعيدًا عن الأخلاقيات الدينية.

٨. أسهمتْ نظرية ابن رشد القرطبي [١١٢٦-١١٩٨م] في إمكانية الوصول للحقيقة عبر الحكمة (الفلسفة) من غير الشريعة، والتي عرضها في كتابه «فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال» في تحقيق الفصل بين المجالين الديني والدنيوي في الفضاء العام الغربي، بدأً من القضية الوجودية عند توما الإكويني [١٢٢٥-١٢٧٤م] والرشدية اللاتينية، وانتهاءً بالقضية الأخلاقية عند الرشدي مارسيليو أوف بادو [١٢٧٥-١٣٤٢م]، أي أنَّ النظرية

الرشدية فتحت للعقل الفلسفي الغربي إمكانية الوصول إلى الحقيقة من غير الدين سواءً في قضايا الوجود أو الأخلاق، لا سيّما إذا استحضرنا أنَّ ابن رشد أُستجلب إلى الغرب باعتباره شارحًا وملخصًا لفلسفة أرسطوطاليس، ولم يكن في العصور الوسطى في الغرب شرحٌ أو تلخيصٌ لكتاب «الأخلاق النيقوماخية» لأرسطو سوى مختصر ابن رشد الذي تُرجم للعبرية واللاتينية حينها.

٩. دفع فساد الكنيسة في أواخر العصور الوسطى وبداية عصر النهضة أسراب المفكرين والمتعلمين العقلانيين للخروج من إصر التصورات الدينية للأخلاق إلى بحبوحة التصورات المدنية، وذلك بإحياء الموروث الأخلاقي اليوناني كبديل عن الأخلاقيات المسيحية.

١٠. أشعل الإصلاح الديني البروتستانتي جذوة الثورة على التقاليد الدينية، وآتى حصاده بغير تخطيط أربابه؛ فقد أسهم بارتفاع موجة الإلحاد في أوروبا كما يرى توكفيل [١٨٠٥-١٨٥٩م]، ودفع كفة الفصل بين الأخلاق والدين، وأسهم في تشكل أخلاق مدنية.

١١. أسهمتْ الطباعة في القرن السادس عشر في بثِّ الوعي الفلسفي في المجتمعات الأوروبية، ولولاها لأشبه من المستحيل نشر هذا الوعي، إذ كان رجال الدين والسلطات السياسية -في مجملها- تحظر نشر هذه الأفكار، وتؤكد لنا قوائم الكتب المحظورة هذا التحليل.

١٢. أحدثت صدمة الكشوف الجغرافية سؤالًا أربك رجال الدين المتنورين، وهو كيف أمكن لهؤلاء السكان في أقاصي الدنيا العيش

دون اعتناق المسيحية؟ كما تسائل الأنواريون؛ كيف تخلقوا بأخلاق ليست يونانية المنشأ ولا مسيحية المذهب؟

١٣. أفرز هذان السؤالان سؤالًا ثالثًا، هل بوسعنا -نحن الأوروبيين- أن نتخلق بغير الأخلاق المسيحية؟ وكان ذلك سببًا دافعًا لإمكانية التخلق بالأخلاق المدنية.

١٤. خضوع الكنيسة لسلطة الدولة -خصوصًا بعد عصر الحروب الدينية- جعل مقاليد التغيير والتوجيه بيد الحكام، وتجلَّى ذلك جليًا في زمن الحكام المستنيرين كفريديك العظيم وكاثرين الثانية وجوزف الثاني وجوستاف الثالث، ممن احتضنوا فلاسفة الأنوار وسمحوا بخلق روابط مدنية لتطبيع الأفكار العقلانية.

١٥. أسهمتْ الرأسمالية التجارية في ظهور ثورة صناعية على يد الطبقة البرجوازية، حملت تغيرات اقتصادية واجتماعية وسياسية، تمخض عنها تغير بنيوي في الرؤية الكونية للطبقات الاجتماعية، ارتدَّ أثرهما على جدلية العلاقة بين الأخلاق والدين، فالبؤساء رأوا في تبرير وضعهم الاجتماعي والاقتصادي من رجال الدين كفرًا بالمسيحية، والأغنياء رأوا في الدين مجموعة من القيود والتخاريف الأسطورية التي لا تتواءم مع عصر الرأسمالية الصناعية.

١٦. انتهت صيرورة السجالات الفلسفية إلى تبني عدد من الفلاسفة المثاليين رؤى ربوبية لنشأة الكون عرفوا بـ(المفكرين الأحرار)، في مقابل تبني الفلاسفة الماديين رؤى إلحادية، تمخض عن هاتين الرؤيتين فصلٌ كلي أو جزئي للأخلاق عن الدين، وبالتالي أُفسِح المجال لتواري الأخلاق الدينية لحساب الأخلاق المدنية.

٢/ أنمـاط انفصـال الأخـلاق عـن الديـن في الحضارة الغربية.

خلال الرحلة الجدلية بين الأخلاق والدين في الحضارة الغربية، تشكلت عدة أنماط (صور) لانفصال الأخلاق عن الدين، كان لبعض هذه الأنماط سمة الاستمرارية عبر العصور، ولبعضها سمة الخصوصية بزمن معين، ويمكن أن نجمل صور انفصال الأخلاق عن الدين منذ الجذور اليونانية حتى العصر الحديث بما يلي:

١. أنماط الفصل بين الأخلاق والدين في العصر اليوناني.

أولًا: فصل الأخلاق عن الدين بدعوى أنّ الآلهة تأمر بالخير دون أن تحدد كنهه أو جزاءه.

يرى مجمل اليونانيين أنَّ الآلهة خَلقت الكون، وأمرتهم بالخير دون أن تحدد لهم ماهيته. يظهر هذا جليًا في محاورة أفلاطون حول الخير، وأرستيبوس القورينائي حول خيرية اللذة عند الآلهة، وكذا أرسطوطاليس في مفهومه عن الخير الأسمى. فهؤلاء الفلاسفة تصدوا لتحديد ماهيّة الخير بما ينتهي إليه نظرهم العقلي بسبب فراغ النصوص الدينية حول الأخلاق.

ثانيًا: فصل الأخلاق عن الدين بدعوى فساد الآلهة أو إنكارها.

ساد هذا النمط عند بعض السفسطائيين والإبيقوريين، وهي نظرة إلحادية للوجود، تختزل صورة الآلهة بما جاء في الأساطير اليونانية، وبالتالي تؤسس الأخلاق على مرجعية غير دينية.

ثالثًا: فصل الأخلاق عن الدين بدعوى واحدية الإله/ الطبيعة.

ساد هذا النمط في الفلسفة الرواقية، ويتلخص في مبدأ «العيش وفق الطبيعة». والرواقيون يقولون بالعناية الإلهية، لكنَّ مفهوم الإله لديهم يتداخل مع مفهوم الطبيعة تداخلًا يقترب من تصور سبينوزا لثنائية الإله/الطبيعة مع اختلاف بينهما. وظهر هذا التصور جليًا في العصر الروماني في مفهوم القانون الطبيعي.

٢. أنماط الفصل بين الأخلاق والدين في عصر المسيحية.

أولًا: فصل الأخلاق عن الدين فصلًا تشريعيًا.

التشريعات هي الأخلاق العملية، فهي الانعكاس الاجتماعي لما يحمله الأفراد من قيم ومبادئ تُصاغ في شكل قوانين. والمسيحية خلت في كافة عصورها من القوانين المدنية والجنائية، وحلَّ محلها القوانين الرومانية، وبهذا انفصل التشريع (الأخلاق العملية) عن الدين في عصر المسيحية.

ثانيًا: تأسيس الأخلاق على الدين تأسيسًا فلسفيًا.

أظهرت بعض النخب المسيحية في العصور الوسطى كبويثيوس [٤٨٠-٥٢٤م]، وتوما الأكويني [١٢٢٥-١٢٧٤م] في العصر المدرسي إمكانية تأسيس الأخلاق على الدين تأسيسًا فلسفيًا (أرسطيًا) -وهذا النمط ظهر عند فلاسفة الإسلام- بحيث تتضمن مقدمة الكتاب حديثًا عن الله وأخلاق المحبة، وتختتم بحديث عن أخلاق السعادة الأرسطية، في محاولة لمواءمتها مع التراث المسيحي. وهذا النمط تنامى كثيرًا في عصر النهضة.

٣. أنماط فصل الأخلاق عن الدين في عصر النهضة.

أولًا: فصل السلوك عن الأخلاق الدينية.

بُعثت التقاليد الرومانية في عصر النهضة في كافة مناحي الحياة، وخصوصًا الأدبية والفنية. تواكب كل هذا مع عودة الفلسفات اليونانية والآداب الرومانية بين النخب الإيطالية، وأصبح من تقاليد المثقَّف محاكاته للسلوكيات الكلاسيكية المتخيلة بعيدًا عن الأخلاقيات الدينية. استمرت هذه التقاليد في تشكيل رصيد من العادات اليومية المدنية حتى بلغت أوجها في عصر الأنوار الفرنسية، حيث أصبح نمط حياة وسلوك الشخص المدني منفصلًا عن التقاليد الدينية، وذا خلفية فلسفية.

ثانيًا: فصل الأخلاق عن الدين فصلًا فلسفيًا.

ابتكر بعض النهضويين الإيطاليين إمكانية تأسيس الأخلاق المدنية على النظر العقلي الفلسفي، وتبنى هذا المنحى أنصار الرشدية اللاتينية. وأخذت المذاهب الأخلاقية اليونانية تُبعث من جديد كالأرسطية

والرواقية وباستحياء الإبيقورية، فأصبح بإمكان الفرد الجمع بين المسيحية اعتقادًا، والفلسفة سلوكًا وأخلاقًا، فيحيا مسيحيًا بأخلاق يونانية!

٤. أنماط فصل الأخلاق عن الدين في عصر التنوير.

أولًا: الأخلاق المدنية من منظور الواحدية المادية (الطبيعة/الإله).

أشاع باروخ سبينوزا [١٦٣٢-١٦٧٧م]، مفهوم وحدة الوجود المادية، حيث يُماهي سبينوزا بين الطبيعة المادية والإله الخالق، جاعلًا منهما معنىً لمسمى واحد، نافيًا عنهما الغائية في الفعل والخَلق. فالخالق هو الطبيعة ذاتها، وقوانينها هي السنن الممكنة لتأسيس الأخلاق عليها لأنها من صنع الطبيعة/الإله. وهذا المنحى وإن كان يُشابه الرواقية في الوهلة الأولى، إلا أنه يختلف عنها لإمعانه في المادية الوجودية.

ثانيًا: الأخلاق المدنية من منظور المذهب الربوبي.

يرى أصحاب النزعة العلمية في القرن السابع عشر في إنجلترا، أنَّ للكون مهندسًا مبدعًا أقامه على هيئة متقنة ضمن قوانين يسير عليها، ثم ترك الكون وشأنه.

وهؤلاء الربوبيون على مذاهب شتى، تجمعهم هذه المقولة، وإنكار الرسل؛ لأنها تخالف مذهبهم في نفي العناية. ويقولون بخلود النفس والجزاء الأخلاقي في الآخرة، ويرون أنَّ الخالق أمر بالخير والفضيلة. ويندرج تحت هذا المذهب الماسونيون في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادي.

ثالثًا: الأخلاق المدنية من منظور أصحاب الدين الطبيعي.

ينظر أصحاب النزعة الرومانسية إلى الطبيعة نظرة قداسة من منطلقات شاعرية، تُعلي من الضمير الإنساني وتجعل منه حكمًا لصوابية الأفعال. وهي أشبه ما تكون بالواحدية الروحية، التي يمثلها جان جاك روسو [١٧١٢-١٧٧٨م].

رابعًا: الأخلاق المدنية من منظور الرؤى الإلحادية.

اشتهر الماديون الفرنسيون (ديدرو، هولباخ، دولباك) بإنكار وجود الخالق، وإنكار النفس الإنسانية، والنظرة المادية للوجود والإنسان، وبالتالي النظر للأخلاق من منظور مادي آلي.

خامسًا: الأخلاق المدنية من منظور لاهوت التطوريين.

تؤسس الأخلاق المدنية على مبدأ النزعة التطورية للإنسان، فكل ما سلف وتصدَّع من القيم فهو بالٍ، وما صمد وتمثَّل في رجال العصر فهو الصالح. فالخلفية الوجودية لهذا المذهب ترى الكون المادي ينتخب الأخلاقيات الصالحة للبقاء.

سادسًا: الأخلاق المدنية من منظور الرؤية العلمانية في القرن التاسع عشر.

تهدف العلمانية إلى إقصاء الدين من المجال العام، والاستعاضة عنه بأخلاقيات مدنية، يغلب عليها التعاقدية النفعية. وهو مذهب ظهر في إنجلترا منتصف القرن التاسع عشر، بهدف فصل الأخلاق عن الدين، دون أن يروج لفلسفة أخلاقية خاصة به. وخضع للتطور الفكري وصولًا

لـ(ما بعد العلمانية)، وللخصوصية الثقافية في كل تجربة مدنية (فرنسا، أمريكا، إنجلترا).

سابعًا: الأخلاق من المنظور العدمي.

رؤية تقوم على إنكار فكرة الخير والشر، وبالتالي إنكار الأخلاق، لكونها تراها من صنع الضعفاء للسيطرة على الأقوياء. وهي رؤية أشاعها نيتشه [١٨٤٤-١٩٠٠م]، وحقيقتها تفضي إلى إنكار الحس الأخلاقي المتراكم عبر القرون لصالح العدمية (اللاأخلاقية).

٣/ المرجعيـات التـي قامت عليهـا الأخلاق المدنية بعد فصلها عن الدين في الحضارة الغربية.

١. النظر العقلي.

أول مرجعية تقام عليها المذاهب الأخلاقية المدنية. وتجلَّت تاريخيًا بعدة صور؛ تارة على وئام مع الدين، وتارة على خلاف معه، وظلت أقوى المرجعيات ثباتًا ورسوخًا. ويعبِّر عنها أرسطو في العصر الكلاسيكي، وكانط في العصر الحديث.

٢. الطبيعة.

تتداخل هذه المرجعية مع مرجعية العقل إلا أنها تفترق عنه في جعلها من الطبيعة الأنموذج الأمثل للمحاكاة، كـ«العيش وفق الطبيعة» أو «البقاء للأصلح».

وحفلت هذه المرجعية بعدَّة صور تاريخية بحسب مفهوم «الطبيعة» عند الفلاسفة، بين أصحاب النزعة المادية، والنزعة المثالية، والنزعة الشعورية؛ وهذا يفسر اختلاف مفهومها بين مفهوم متصلب يقف مضادًا للدين، وآخر روحاني يشاطر الإله في تدبير الكون.

وأشهر ممثلي النزعة الطبيعية؛ الرواقيون في العصر الكلاسيكي، والتطوريون في العصر الحديث.

٣. العلم.

تعدُّ هذه المرجعية من المرجعيات الحديثة للأخلاق المدنية. ولم تظهر كمرجعية مضادة للدين إلا في القرن السابع عشر في إنجلترا مع الجمعية الملكية البريطانية، والتي كان أعضاؤها من علماء الطبيعة كإسحاق نيوتن [١٦٤٢-١٧٢٧م]، ثم أخذت في الصعود مع الثورة الصناعية والثورة الفرنسية، وأصبح هيكل العلم مرجعًا للأخلاق المدنية، كما تصوره الوضعيون الفرنسيون كسان سيمون [١٧٦٠-١٨٢٥م] وأوجست كونت [١٧٩٨-١٨٥٧م].

٤. الشعور.

لم يتجلَّ الشعور كمرجعية للاختيارات الأخلاقية إلا نهاية القرن السابع عشر في إسكتلندا، ولاحقًا في فرنسا وألمانيا. وهو على عدة رؤى، أشهرها مرجعية الشعور لذاته للاختيار الأخلاقي كالرومانسيين، والأخرى تخلط بين الشعور والنظر العقلي كأفلاطونيو كامبردج [١٦٣٣-١٦٨٨م].

٥. القانون / الدولة.

نشأت هذه المرجعية في العصر الحديث مع بداية انفصال الدول عن الإمبراطوريات وتشكل الدول القومية مطلع القرن السابع عشر، نهايةً لبزوغ الدولة الحديثة في صورتها الشمولية؛ التي تحدد خيارات الفرد منتصف القرن العشرين. ويُعد الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز [١٥٨٨-١٦٧٩م] أول ممثل لها، نهايةً بالألمانيين هيجل [١٧٧٠-١٨٣١م] وكارل شميت [١٨٨٨-١٩٨٥م].

٦. الإنسانوية.

من أقدم مرجعيات الأخلاق المدنية منذ العصر اليوناني، أشهرَها السفسطائيون القائلون بـ«الإنسان مقياس كل شيء»، ثم اندرست هذه النزعة في العصور الوسطى، وظهرت مجددًا في عصر النهضة الإيطالية منذ القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر، وممثلها الأشهر الكونت جيوڤاني ميراندولا [١٤٦٣-١٤٩٤م] من التيار الإنسانوي في الإيطالي.

٧. الطبقة الاجتماعية.

حدد كارل ماركس [١٨١٨-١٨٨٣م] وفريدريك إنجلز [١٨٢٠-١٨٩٥م] من الطبقة الاجتماعية محددًا للدوافع الأخلاقية للفرد، سواءً كانت هذه الدوافع دينية أم مدنية.

٨. العدمية.

بشَّر بهذه المرجعية فريدريك نيتشه [١٨٤٤-١٩٠٠م] كفلسفة ستغمر الفضاء الفلسفي الأوروبي في القرن العشرين، وهي مرجعية تؤمن بألَّا خير ولا شر في العالم وإنما عدم. والقارئ لتراث نيتشه زمنيًا، يجد تحليله للفكر الأخلاقي تاريخيًا من منظور أخلاق القوة والضعف، كإطار تفسيري لبزوغ وصراع القيم الأخلاقية. بينما تهدم فلسفته العدمية نظريته السابقة، وهي تمثل آخر نتاجه المعرفي.

٤/ غايات الأخلاق المدنية في الحضارة الغربية.

١. الغاية المعرفية.

يصبو الجدل عند سقراط [٤٧٠-٣٩٩ق.م] للوصول إلى المعرفة الحقَّة ومنها الحقيقة الأخلاقية، ففي محاورات أفلاطون (السقراطية) نجده يورد السؤال تلو السؤال للوصول إلى أسمى غاية تُنشد في جداله مع السفسطائيين؛ الذين لا يؤمنون بحقيقة يُصار إليها.

٢. غاية الوصول إلى الخير الأسمى.

تختلف المذاهب الأخلاقية الفلسفية في تقدير ما هو الخير الأسمى، منذ أن جعل منه أرسطو غاية أخلاقية، كما أنَّ هذا المفهوم اصطبغ بصبغ دينية (إسلامية ومسيحية) في العصور الوسطى.

٣. غاية الزهد.

يبدو الزهد دومًا كقيمة دينية تحث عليها القيم الأخلاقية في الأديان، إلا أنَّ لهذه القيمة وجهًا دنيويًا بين مذاهب الأخلاق الفلسفية، فنجدها مذهبًا دنيويًا عند الكلبية أتباع أنتيستنيس [٤٤٥-٣٦٥ق.م] تلميذ سقراط، الذي زهد بالمتع واللذائذ الجسدية (في المشهور عنه)، ونادى بالتقشف كغاية للسلوك الإنساني.

٤. غاية تحصيل السعادة.

يمثل مبدأ السعادة أكثر الغايات الأخلاقية ذكرًا بين الفلاسفة، وهم وإن كانوا لا يتفقون على موجب تحصيلها؛ إلا أنهم يتفقون في الدعوة إليها. وغني عن القول أنَّ أرسطو أول من نظَّر لهذه الغاية.

٥. غاية الفضيلة.

اكتسبت غاية الفضيلة مكانها اللائق في العصور الكلاسيكية، وهي بحسب المعلم الأول أرسطوطاليس «ما كان وسطًا بين رذيلتين».

٦. غاية اللذة الجسدية.

رأى أرستيبوس القورينائي [٤٣٥-٣٥٥ق.م] تلميذ سقراط، الخيَر في اللذة واستهلاك المتع الظاهرة، وكان يقول بلذَّة المتع العقلية إلا أنَّه كان يدرجها في آخر سُلّم اللذائذ. وأيًا ما كان، فقد اختفى هذا المذهب في العصر الوسيط بشكل لافت وفُقدت كل كتبه ورسائله، لكنَّه بُعث من مرقده بعد تنامي التيار اللذائذي في آخر عصر التنوير الأوروبي.

٧. غاية اللذة العقلية.

مذهب الإبيقورية الأخلاقي تتمثل غايته في اللذة العقلية، وهو مذهب تعرض للتحريف بخلطه -لغرض التشويه- بمذهب اللذة القورينائية. واللذة العقلية أسمى الخيور عند أبيقور [٣٤١-٢٧٠ق.م] وهي بذلك قريبة من غاية المعرفة السقراطية، ومن مزاج الفلاسفة الذين يحصرون الحكمة في معارفهم.

٨. غاية التوافق مع الطبيعة.

«العيش وفق الطبيعة» يمثل غاية مذهب الرواقية الأخلاقي، وتعد من النزاعات التوفيقية ما بعد الأرسطية التي تعتدل في تحديد نظامها الأخلاقي بين حاجات النفس وحاجات الجسد.

٩. الغاية المادية الغريزية.

اختزل ماديو فرنسا في عصر التنوير أفعال وغايات الإنسان في إطار مادي غرائزي صِرف، والإنسان يتصرف وفق ما تمليه عليه غرائزه، وكأنه مسلوب الإرادة؛ مُشبَّه في سلوكه بالحيوان، وهنا نستذكر بعض فلاسفة فرنسا الماديين، كهلفسيوس [١٧١٥-١٧٧١م]، ودولباخ [١٧٢٣-١٧٨٩م] وكوندورسيه [١٧٤٣-١٧٩٤م].

١٠. غاية الدولة.

العيش وفق رؤية الدولة للأخلاق أحد الغايات العملية للسلوك الإنساني، فهوبز يرى الدولة إله أرضيًا؛ لأنها الضامن للاستقرار والأمان، وهي عنده مُطلق عقلي تجلَّى في صيرورة التاريخ.

١١. غاية تعميم السلوك الخيِّر.

من الغايات الأخلاقية المنشودة أن يضع المرء من سلوكه «قاعدة واجبة قابلة للتعميم الإنساني»، فكل ما أمكن وصحَّ تعميمه فهو غاية أخلاقية عند كانط وفق قاعدته الذهبية.

١٢. غاية العلم.

أصبح العلم غاية في ذاته تُستَمد منه أحكام أخلاقية مُتخيلَّة منذ عصر الحداثة -الذي ولد من رحم الثورات العلمية والصناعية- فرأى

الوضعيون الفرنسيون في العلم الحقيقة والدوام والوثوقية، فأرادوا بعثَ أخلاق يتحلَّى بها العلماء والصنائعيون دون تحديد لمسالكها.

١٣. غاية تحقيق العدالة.

من رحم الرأسمالية الصناعية، ولدت معاناة الطبقة العاملة (البروليتاريا)، ومن التناقضات الاجتماعية خطَّ كارل ماركس فلسفته الأخلاقية المتمحورة حول قيمة العدالة كغاية تدفع الطبقة العاملة لتحقيقها عبر صراعها التاريخي مع الطبقة البرجوازية، فالعدالة بمفهومها الأوسع في السياسة والاقتصاد والمجتمع هي الغاية التي تقبع خلف فلسفة الأخلاق الماركسية.

١٤. غاية تحصيل المنفعة.

انسجمت غاية المنفعة الشخصية مع روح الكسب الرأسمالي في القرن التاسع عشر، وهي على مذاهب؛ بين مُمعن في الأنانية كبنتام [١٧٤٨-١٨٣٢م] أو مراعٍ للعدالة الاجتماعية كجون ستيوارت مِل [١٨٠٦-١٨٧٣م]. وهي على كل حال، فلسفة ترتكز على مقياس المنفعة الشخصية.

١٥. غاية القوة.

حلَّل نيتشه عناصر التفوق الحضاري في العصر الذهبي لمدينة/ الدولة أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد، فوجدها ترتكز على أخلاق القوة، فالقوة وكل ما يتصل بها من أخلاق هي غاية الفعل الأخلاقي للطبقة الـمُتغلبة (الأرستقراطية)، فالكبرياء والغرور والاقتتال والتوحش

محمود؛ لأنه من أدواتها، وكل ما سواها يقبع تحت أخلاق الضعف التي روَّج لها سقراط وطلابه منذ مطلع القرن الرابع قبل الميلاد.

١٦. العدمية (اللاغاية).

أنهى نيتشه نشاطه الفلسفي مُبشرًا القارة الأوروبية بحلول عصر العدمية وانعدام الغاية، بحيث يتحرر الفعل الإنساني من ثنائية الخير والشر، إلى اللامعنى العدمية.

٥/ سمات الأخلاق المدنية في الحضارة الغربية.

١. الفردانية.

تتميز الأخلاقيات الدينية بكونها أخلاقًا غيرية، تؤثِر الآخر ولا تتمركز على الذات، بل تسعى لسعادة المجموع والتضحية في سبيله، بينما يكمن جوهر الأخلاق المدنية -في الأغلب- في سعيها لتحصيل النفع أو السعادة أو الخير أو اللذة للفرد. وهذه السمة جلية في فلسفة الأخلاق اليونانية وأخلاقيات عصر التنوير والحداثة، ولعلَّ الكانطية والماركسية تشكل الاستثناء الأخلاقي -الذي يثبت النظرية- الساعي لتعميم الخير.

٢. النسبية.

لا تتعلق الأخلاق المدنية بالمطلقات الدينية إلا بعد «علمنتها»، وإذا ما فقدت هذه المطلقات أساسها الروحي فقدت ذاتها وفاعليتها، ويمكن القول أنَّ أخلاقيات عصر النهضة كانت أقرب للمطلقات منها للنسبية؛ لقربها من الأخلاقيات الدينية في توجهها للإنسان، بينما أخذ ذلك في الضمور مع الفلسفات اللاحقة عدا فلسفات السرديات الكبرى.

ونسجل لفلسفة الأخلاق الماركسية تمسكها بالمطلقات الأخلاقية الكبرى كالعدالة والمساواة، وهذا ما أضفى عليها طابعًا حيويًا أشعل لهيب الجماهير حول العالم.

٣. **الإنسانية.**

تنشد الأخلاق المدنية سعادة الإنسان المجردة لذاته، بصرف النظر عن تدينه أو عدم إيمانه. فهي أخلاق تستمد تبريرها العقلي من عالم الدنيا لا الدين. ويمثل كانط حالة جدلية في دوافع تعميمه الخير للإنسانية، هل كانت بدوافع مدنية أم دينية؟ والظاهر أنها بدوافع مدنية بضمانات دينية -لمن كان الدين محفزًا لفعله الأخلاقي-.

٦/ جاءت المصطلحات الوصفية لـ(انفصال الأخلاق عن الدين) في الحضارة الغربية.

١. تنقسم إلى ثلاثة أقسام مصطلحات ذات طابع ديني، ومصطلحات ذات طابع شعبي، ومصطلحات ذات طابع فلسفي، وداخل كل مصطلح تحقيب دلالي لكل مرحلة زمنية.

٢. يمثِّل مصطلح (Sécularism) أشهر مصطلحات الفصل بين الأخلاق والدين، وقد مرّ بثلاث حقب تاريخية (الكلاسيكية، والمسيحية، والحداثية) حتى انتهى إلى دلالته الاصطلاحية عند جورج هوليوك [١٨١٧-١٩٠٦م] في منتصف القرن التاسع عشر.

٣. كان مصطلح (Sécularism) أدق ما يصور ويصف انفصال الأخلاق عن الدين، لجمعه بين الخلفية الإلحادية المعادية للدين، ونقده للأخلاق الدينية، ودعوته لفلسفة أخلاق مدنية.

٤. اختصَّ مصطلح (Laïque) بالدعوة إلى علمنة التعليم في المدارس الفرنسية، وذلك بإقصاء الأخلاق المسيحية، وإحلال الأخلاق المدنية عوضًا عنها.

ملخص جدلية صراع الأخلاق مع الدين في الحضارة الغربية.

٧/ بلغ الاتصال بين الأخلاق والدين ذروته في المجتمعات القديمة كالحضارة المصرية، إذ كان الالتزام بالأخلاق -ذات المرجعية الدينية- سبيلًا للنعيم في العالم السفلي، ومنها تسرب للحضارة اليونانية اتصال الأخلاق بالدين، وترتيب الجزاء الأخروي على السلوك عند بعض النحل الدينية اليونانية كالإليوسيسة والأورفية.

٨/ أسهمتْ المكونات الدينية والأدبية والفلسفية كافة في الحضارة اليونانية في الدفع لفصل الأخلاق عن الدين، وتأسيس أخلاق مدنية بدرجات متفاوتة وتعقيدات مختلفة.

٩/ لم تشذ الديانة اليونانية في جذورها السحيقة عن باقي الحضارات في الشرق الأدنى في وصلها الأخلاق بالدين، إلا أنَّ هذا الوصل تصرَّم مع تعاقب القرون حتى غدت الديانة الشعبية اليونانية موضع جدل وإشكال في تصوراتها الأخلاقية.

١٠/ يمكن القول -بكل طمأنينة- أنَّ ما حوته أشعار الإلياذة والأوديسة للشاعر الملحمي هوميروس، يُشكِّل معظم تصوراتنا عن الديانة الشعبية اليونانية، ونلحظ فيها غياب المكوِّن الديني عن الأخلاق؛ فلم تُقدِّم الآلهة نفسها كحامية للفضيلة -كما كان ينتظر منها- بل على العكس ارتكبت الرذائل مما صغَّرها في أعين اليونانيين.

١١/ دفع الشاعر الديني هيزيود إلى تمجيد الآلهة أخلاقيًا في أشعاره «الأعمال والأيام»، بعد أن رأى سقوطها المخزي في الأشعار الملحمية، إلا أنَّه أعاد ما قيل في الأشعار الملحمية (الإلياذة والأوديسة) في عمله الآخر «أنساب الآلهة».

١٢/ مثَّلت النِّحل السرية اليونانية ملتقى التثاقف الديني بين الحضارة اليونانية والحضارة المصرية القديمة؛ فمن خلالها تجلَّت الروح الشرقية في الجسد المادي اليوناني، وتسربت مفاهيم الروح والخلود والنفس والحساب والجزاء. وبناءً عليها، أُعيدت الأخلاق إلى حظيرة الدين، حيث رُتِّبَ للفضيلة والرذيلة جزاء في عالم ما بعد الموت.

١٣/ مثَّلت النحلة الأورفية قوام الصورة المثلى للأخلاق الروحية في الحضارة اليونانية المستنسخة من الديانة المصرية القديمة، والقائمة على فكرة الصراع بين عنصريْ الخير والشر، والخلود والنعيم بعد الموت لأصحاب الأعمال الصالحة، وتركت أثرًا بالغًا على شعراء وفلاسفة اليونان الروحيين، كالفيلسوف الرياضي فيثاغورس [٥٧٠-٤٩٥ق.م]، والشاعر الغنائي بنداروس [٥٢٢-٤٤٣ق.م].

١٤/ لعب الأدب اليوناني بمختلف مراحله ومساراته دورًا رئيسيًا في تشكل الوعي الجمعي في المجتمع اليوناني تجاه الأخلاق والدين، ونلحظ في الأدب التراجيدي تراجع حضور الآلهة، وحضور الإنسان الـمُقدِّر لإرادته، والتأكيد على سيادة القانون على البشر، وطرح سؤال الأخلاق، وغيرها مـمَّا دفع بتأسيس الأخلاق المدنية.

١٥/ ثمَّة مساران في جدلية العلاقة بين الأخلاق والدين في الدرس الفلسفي اليوناني: مسار يبني الأخلاق على الإلزام الديني والجزاء الأخروي -وهذا الأقل- بدأً بفيثاغورس وانتهاءً بأفلاطون -إلى حد ما-. ومسار يبني الأخلاق على النظر العقلي؛ فاصلًا بين الأخلاق والدين، جاعلًا من العقل أو الضمير أو القانون ملزمًا للفعل الأخلاقي، وهذا المسار ابتدأ بالحكماء السبعة وانتهى بالرواقية.

١٦/ أسهم مسار فيثاغورس الروحي في تأسيس الأخلاق على الدين، وذلك لإجلاله الآلهة إجلالًا لا يرقى إليه واضعو الأساطير اليونانية، فضلًا عن تضمَّنها تعاليم أخلاقية مباشرة بالفعل والترك والتحليل والتحريم كما في وصيته «الذهبية»، وترتيب الجزاء في العالم السفلي للمسيئين لضمان الإلزام الأخلاقي.

١٧/ استقى سقراط سؤال الأخلاق من أستاذه أرخيلاؤوس الأثيني [القرن الخامس قبل الميلاد]، حيث تحول كلاهما من مبحث الطبيعيات إلى مبحث الأخلاق، وخلُص سقراط إلى تأسيس الأخلاق على العقل مستقلًا عن توجيهات الآلهة، مُذكِّرًا في محاوراته بأفعالهم المشينة، واختلافهم في مفاهيم الخير والفضيلة والشر والرذيلة.

١٨/ اختلفت المدارس الفلسفية الأخلاقية التي تلت سقراط في تحديد «مفهوم الخير»، واتفقت -عدا أفلاطون- على فصل الأخلاق عن الدين، وتأسيس أخلاق مدنية.

١٩/ حصر أرستيبوس القورينائي مفهومه للخير في إطار تعاطي اللذات وخصوصًا الجسدية، محتجًا بحجج عقلية مستشهدًا بتندرٍ -إذا ما أعوزه النقاش- بأفعال آلهة اللذة والمتعة (إيروس وديونيسوس).

٢٠/ يقرر أرسطو في مصنفاته الأخلاقية فكرة تأسيس الأخلاق المدنية، انطلاقًا من صبو الإنسان إلى تحقيق الخير الأسمى، والذي لا ينال بتقريب القرابين للآلهة، بل بالسعي لنيل السعادة التي تتماهى مع الفضيلة، وهي ما كان من الأفعال والأقوال وسطًا بين رذيلتين، مرتكزًا في تقرير مذهبه الأخلاقي على نقد الديانة الشعبية، والتأكيد على غياب العناية الإلهية، وعدم خلود النفس.

٢١/ شهدت المرحلة الأولى من الديانة الرومانية الإتروسكانية اتصالًا بين الأخلاق والدين قبل القرن السابع قبل الميلاد، إذ كانت تدعو إلى الفضيلة وكبح الشهوات، وتقرر وجود الحساب والجحيم في العالم السفلي، لكنَّه دون اتصال الأخلاق بالدين كما في الديانات الشرقية.

٢٢/ بعد مرحلة تثاقف الحضارة الرومانية مع الحضارة اليونانية، شهدت الديانة الرومانية تحولًا ملحوظًا نحو «اليوننة»، فأخذت تُضفي على آلهتها الطابع اليوناني وتأنسنها وتجسدها على هيئات بشرية.

٢٣/ شهد العصر الروماني فصلًا حادًا للأخلاق عن الدين في آخر العصر الجمهوري [القرن الأول قبل الميلادي]، وآخر ليِّنًا في بداية العصر الإمبراطوري [القرن الأول بعد الميلادي]. ويمكننا القول أنَّ الأخلاقيات الرومانية تأثرت بالأخلاقيات اليونانية فكرًا وفلسفةً وسلوكًا.

٢٤/ لم يبتكر الرومان فلسفة أخلاقية خاصة بهم، وإنما كانوا رجع صدى للفلسفات الأخلاقية اليونانية، وراجت لديهم فلسفتان هما: الإبيقورية والرواقية، وكلتاهما فصلتا الأخلاق عن الدين بصيغ مختلفة، فالإبيقوريون فصلوا الأخلاق عن الدين فصلًا تامًا، وجعلوا من اللذة معيارًا للفعل الأخلاقي، وقالوا بفناء النفس كما في قصيدة لكريشيوس «في طبيعة الأشياء». والرواقيون فصلوا الأخلاق عن الدين فصلًا جزئيًا وقالوا بالعيش وفق الطبيعة، وأنكروا الخوف من الموت؛ إذ لا حياة بعد الفناء الدنيوي، والعجب أنهم قالوا بالعناية الإلهية! وهذا ظاهر في «تأملات» الإمبراطور ماركوس أوريليوس [١٢١-١٨٠م].

٢٥/ كان التشريع اليهودي (التلمود) مثالًا تقليديًا لاتصال الأخلاق بالدين، على خلاف التعليم اللاهوتي (التوراة) الذي حمل في تضاعيفه

أسوأ ما يمكن تصوره في سوء الأدب مع الربّ «يهوه»، مما كان له أثر في خلق ثنائية أخلاق في التعامل بين اليهودي وغير اليهودي (الأغيار).

٢٦/ عاودت الأخلاق اتصالها بالدين في الفضاء العام مطلع القرن الرابع الميلادي بسبب اعتناق الإمبراطورية الرومانية للمسيحية، وظل الاتصال يتصاعد وتيرته وصولًا إلى إغلاق آخر مدرسة فلسفية يونانية (الأكاديمية الأفلاطونية) في أثينا عام ٥٢٩م، مما اضطر الفلاسفة للهجرة إلى المشرق.

٢٧/ فتح الفراغ التشريعي في المسيحية -بعد إسقاط الشريعة اليهودية في القرن الميلادي الأول- البابَ لعودة الأخلاقيات الرومانية الرواقية من نافذة التشريع القانوني الروماني، وذلك بعد ما طلب الإمبراطور جستنيان الأول [٥٢٧-٥٦٥م] من رجال القانون المتدينين انتقاء القوانين الصالحة من مدونات القوانين اليونانية، وأصدرها في مدونته الشهيرة عام ٥٣٤م.

٢٨/ كان القدِّيس أوغسطين [٣٥٤-٤٣٠م] أدهى فيلسوف مسيحي في العصور الوسطى. ولكونه «مانويًا» قبل اعتناقه المسيحية؛ فقد عُني بمشكلة الخير والشر، وقاربها فلسفيًا في كتابه «مدينة الله»، وانتهى به المطاف لزرع بذور الفصل بين الأخلاق والدين فلسفيًا في الرؤية المسيحية، من خلال تفريقه بين السلطتين الدينية والدنيوية، ونمذجته للفلسفة اليونانية كأرقى ما وصل إليه الفكر الإنساني، ما كان يعني عمليًا، إمكانية تأسيس أخلاق مدنية لجموع المواطنين من الموروث الفلسفي اليوناني.

٢٩/ أسهمتْ المؤسسات التعليمية في العصور الوسطى وبداية عصر النهضة في إحياء التراث الفلسفي اليوناني، من خلال دواوين الترجمة

والتعليم الجامعي. وبفضله أخذ التعليم الفلسفي بالاستقلال شيئًا فشيئًا عن سلطة الكنيسة، وأتاح المناخ لتعدد التيارات الفكرية الفلسفية ما بين «رشدية لاتينية»، و«سينائية لاتينية» وغيرها، ما جدَّد طرح سؤال مرجعية الأخلاق بعد صمت دام قرونًا.

٣٠/ حمل روجر بيكون [١٢٢٠-١٢٩٢م] مسؤولية بعث العلوم الطبيعية في القرن الثالث عشر، وسعى لتأسيس المنهج التجريبي تأثرًا بالموروث العربي، كما طالب باستمداد «الأخلاق الشخصية» من فلسفة أرسطوطاليس والرواقية الرومانية. وبذلك يكون بيكون من أوائل المنادين بالأخلاق المدنية عشية عصر النهضة.

٣١/ نخر الفساد السياسي والمالي والأخلاقي قوام الكنيسة الكاثوليكية في عصر النهضة، حتى وصل لمدى لا يمكن التعايش معه؛ فمن بيعٍ للمناصب الدينية (السيمونية)، إلى محاكم التفتيش التي عجزت عن مقارعة خصومها بالحجة فلجأت إلى التعذيب والتصفية الجسدية، إلى بيع المغفرة بل الجنة مقابل دفع المال للكنيسة (صكوك الغفران).

كل هذا الفساد الكنسي دفع الفرد المسيحي للتساؤل عن مدى بقاء الكنيسة ملتزمة بحماية القيم المسيحية، كما ترك الباب مشرعًا للبحث عن أخلاقيات مدنية بديلة، لا سيما مع تغير الذائقة الجماهيرية تجاه الدين، وانبعاث جيل جديد من المفكرين الإنساويين في إيطاليا عصر النهضة.

٣٢/ أسهمتْ حركات الإصلاح الديني الكبرى (الويكلفية والهسيَّة واللوثرية) في خلخلة التصورات الشعبية عن رجال الدين الكاثوليكيين، وشجعت الأفراد لقراءة الكتاب المقدس لفهم حقيقة المسيحية بعيدًا

عن أفهام رجال الدين، وذلك بترجمته من اللاتينية إلى اللغات القومية الأوروبية مع ثورة الطباعة، ما أحدث شرخًا في الثقة بالأخلاق الدينية والبحث عن بديل مدني عنها.

٣٣/ شكلت رؤية المفكر الإيطالي الرشدي مارسيليو أوف بادو [١٢٧٥-١٣٤٢م] حول «سيادة الدولة» وإخضاع الكنيسة لها، الأساس الفلسفي لنظرية «الدولة الحديثة»، كما أنه قال -تحت تأثير وتأويل فلسفة ابن رشد- بإمكانية «نيل السعادة بعيدًا عن الدين»، دون أن تكون هذه السعادة ناقصة أو مرذولة، فكما أنَّ الدين يصل إلى السعادة فالعقل خليق بذلك. فكان من أوائل الداعين للأخلاق المدنية في عصر النهضة.

٣٤/ هيأت الحروب الدينية التي اندلعت في أوروبا منتصف القرن السادس عشر المناخ المناسب للفلاسفة للتساؤل عن جدوى الاحتراب في سبيل المعتقد؟ وعمَّا إذا كان ممكنًا إنشاء «عقيدة مدنية» تتيح للفرد اعتناق ما يراه من الآراء والمعتقدات بعيدًا عن الإكراه الديني، يندرج تحتها حقه في تحديد سلوكه الأخلاقي ومرجعيته التي يستمد منها إلزامه الخُلقي كما يقرر جون لوك [١٦٣٢-١٧٠٤م] في رسالته «في التسامح»، باستثناء الملحدين لأنهم لا يملكون «نظامًا أخلاقيًا» وفقًا للوك.

٣٥/ تمخض عن فكرة التسامح العقدي، التسامحُ مع غير المؤمنين (الملاحدة) وإذا كان لوك يمنع ذلك، فقد نادى الأنواري الفرنسي بيير بيل [١٦٤٧-١٧٠٦م] بذلك، وأشرع الطريق لتأسيس أخلاق مدنية منفصلة تمامًا عن الدين.

٣٦/ أثارت «الأخلاق الفاضلة» التي تحلَّى بها وثنيو العالم الجديد (القارتين الأمريكيتين) في عصر الكشوف الجغرافية، تساؤلًا أخلاقيًا مفاده: كيف ينعمُ هؤلاء السكان بالسعادة دون اعتناق المسيحية؟ ما يعني إمكانية وجود خلاص أخلاقي خارج المسيحية، وبالتالي خارج الأديان.

٣٧/ أحدث كتاب «الأمير» لميكافيلي [١٤٦٩-١٥٢٧م] ثورة في الأدبيات السياسية والأخلاق العملية، لأنه قدم المبرر الأخلاقي للممارسات المشينة، بل ذهب إلى ضرورة هذه الممارسات. والثورة الفلسفية في فكر ميكافيلي كانت في استناده للواقع لتبرير فلسفته الأخلاقية بعيدًا عن التراث الفلسفي اليوناني، أي أنَّ ميكافيلي نقل الفكر الأخلاقي من طور التقليد الفلسفي إلى الإبداع بقدرته على إنتاج سردية جديدة لبناء فلسفة أخلاقية بعيدًا عن التراث الديني والفلسفي التقليدي.

٣٨/ أحدث تطور المناهج العلمية في القرن السابع عشر تغيرًا بنيويًا في «مفهوم العلم»، وكان الفيلسوف الإنجليزي فرنسيس بيكون [١٥٦١-١٦٢٦م] المنظِّر لهذا الحدث التاريخي، وخلُص إلى أنَّ «الإنسان العلموي» قادر على تفسير الطبيعة والسيطرة عليها، وهذا العلم يملك استقلاله التام عن الدين والفلسفة التقليدية، وبالتالي يحق له إذاعة نظام أخلاقي جديد منبعث من كينونته الخاصة.

٣٩/ أسهم تشكُّل رأس المال التجاري منذ عصر النهضة، وتحول نمط الإنتاج من النمط الإقطاعي إلى النمط الرأسمالي إلى تغير الأخلاقيات الاقتصادية والاجتماعية، فتعاظمت روح الأنانية والنفعية، وانغمست المجتمعات المدنية في اللذة، ولم تعد الأخلاق الدينية صالحةً للتواصل الاجتماعي، ما سمح للمفكرين والفلاسفة ابتكار فلسفات أخلاقية جديدة توائم عصر الرأسمالية.

٤٠/ أثار صعود طبقة رجال المال (البرجوازية) سلَّم الطبقات الاجتماعية السبيلَ لنشر قيم «التنوير الفلسفي» في المجتمع الأوروبي. كانت هذه الطبقة ترعى العلوم والفنون والفلسفة، فذاعت الأفكار والسلوكيات المدنية غير المتوائمة مع الأخلاقيات التقليدية في إنجلترا وفرنسا مطلع القرن الثامن عشر.

٤١/ قضت الثورة الصناعية في إنجلترا على ما بقي من إنسانية الإنسان الحديث، وأحدثت ممارسات غير أخلاقية؛ من تشغيل النساء والأطفال ساعات طويلة شبيهة بنظام السخرة. وبطبيعة الحال لم تكن هذه الممارسات تتوافق مع الدين أو الأخلاق، ومع ذلك كله غالت بعض المذاهب الأخلاقية في محاولة تبرير هذه الأفعال المشينة بدافع المنفعة.

٤٢/ فتح منهج الشك الديكارتي السبيل للتشكيك في قضايا الوجود واللاهوت والأخلاق، وعلى إثره نفى باروخ سبينوزا [١٦٣٢-١٦٧٧م] وجود الخير والشر كمحددين للأخلاق قبل نيتشه بنحو مئتي عام، كما أنكر العلل الغائية للوجود نافيًا العناية الإلهية.

٤٣/ أناطَ فيلسوف الدولة الحديثة توماس هوبز للدولة سلطة الإلزام الأخلاقي، وأضفى على كل أفعالها مشروعية الخير والفضيلة، واعتبرها مرجعية الفعل الأخلاقي والإله الفاني في الأرض. من هنا كانت أفعال الدولة تستمد مرجعيتها من ذاتها لا من مصدر مفارق، وهذا خلق فضاءً مناسبًا للتنظير الفلسفي لسلطة الدولة الأخلاقية كما تجلت عند هيجل والأنظمة السلطوية لاحقًا.

٤٤/ نقد فيلسوف الريبة الإنجليزي ديفيد هيوم [١٧١١-١٧٧٦م] إمكانية الإلزام بالأخلاق من خلال التخويف بالجزاء الأخروي، لإنكاره

حياة النفس بعد الموت. كما نفى العناية الإلهية، وأشاع بين فلاسفة التنوير نقده الطبيعي (الربوبي) للدين، وجعل من الأحاسيس مُحددًا للقيم الأخلاقية.

٤٥/ اختلفت المدارس التنويرية في تقعيدها المرجعي للأخلاق المدنية، فجعل الرومانسيون كجان جاك روسو [١٧١٢-١٧٧٨م] من الفطرة مصدرًا وحاكمًا وملزمًا للفعل الأخلاقي، أمَّا الماديون كفولتير [١٦٩٤-١٧٧٨م] والموسوعيون الفرنسيون فنفوا أي مصدر للوجود سوى المادة، وفسروا أفعال الإنسان الأخلاقية من خلالها.

٤٦/ أثار مفهوم (اللاهوت الأخلاقي) عند كانط إمكانية الاستدلال على وجود الخالق، بدليل مبتكر لم يكن مطروحًا لدى لاهوتي العصور الوسطى، ومن خلاله وفرضيات «العقل العملي» أسس كانط أخلاقه المدنية، جاعلًا من قانون «العقل العملي المحض» مصدرًا مرجعيًا للأخلاق. لكنَّه في الإلزام الأخلاقي استعان بالدين من خلال «فرضيات العقل العملي». وهذه المسائل لا يمكن فهمها دون معاناة قراءة نصوصه الفلسفية، وهي أعظم ميراث أخلاقي مدني ابتكرته الحضارة الغربية، وظل مفعوله ساريًا ومؤثرًا حتى اليوم.

٤٧/ أكَّد هيجل على سلطة الدولة الأخلاقية وأمعن في التنظير لها، فالدولة هي الحاكمة على السلوك الإنساني بقانونها الأخلاقي، معتبرًا الدولة أكبر تجلٍ للعقلانية في التاريخ.

٤٨/ حلَّلت الماركسية تطور الفكر الأخلاقي في التاريخ الإنساني بعوامل الصراع الطبقي، والدوافع المادية بشكل أساس، ورأت في غير ذلك من الدوافع المثالية، كالدين زيفًا طبقيًا يُفرض من الطبقات

المستغِلة على المهمشين. ولم تنظِّر الماركسية فلسفة أخلاقية تخصها، وإنما اقتصر حديثها -عند مؤسسيها- على نقد أخلاقيات الرأسمالية.

٤٩/ حدد سان سيمون [١٧٦٠-١٨٢٥م] ثلاث مراحل لتطور الفكر الإنساني عبر التاريخ، وانتهى فكره الوضعي عند أوجست كونت [١٧٩٨-١٨٥٧م] بابتكار «دين الإنسانية» كدين خاص بالعلماء، مستخدمًا ذات الأدوات الدينية -التي حاربها- لبناء منظومة دينية وأخلاقية جديدة مستمدة من المسيحية بعد «علمنتها».

٥٠/ حدد النفعيون اللذة كمقياس للفعل الأخلاقي، وتفاوتوا في موقفهم من الدين بين فصلٍ تام كما عند بنتام وجيمس مِل (الأب)، وبين فصل جزئي كما عند جون مِل (الإبن)؛ يتم فيه توظيف الدين لصالح تبرير الدوافع المنفعية.

٥١/ رأى التطوريون في الأخلاق مجالًا للصراع مع الطبيعة، فهي تخضع للتطور عبر حركة التاريخ نحو الأصلح، وبالتالي فهي نسبية غير مطلقة كما تصورها الأديان.

٥٢/ نقد نيتشه الأخلاقيات الدينية المسيحية والأخلاقيات المدنية على حدٍّ سواء، وبشر بأخلاق القوة في أول أمره، ثم دعى للعدمية كفلسفة سلوك، وبذا تكون النيتشوية أشد صور فصل الأخلاق عن الدين، لكونها لم تقتصر على ذلك بل تعدته لفصل القيمة عن الأخلاق أو الأخلاق عن الحياة.

٥٣/ أُنتقدت المثالية الكانطية بكونها وضعت المفاهيم الدينية (ضمانات العقل العملي) لأغراض دنيوية، أي أنها علمنة مفاهيم الدين، كما أنها اضطربت في توصيف الدور الأخلاقي المنوط بالإله الأسمى.

٥٤/ برغم كون آراء هيجل حول الدولة وسلطتها الأخلاقية المطلقة لم تتجلَّى بشكل جلي إلا مع الأنظمة الشمولية في النصف الأول من القرن العشرين، إلا أنَّ طلاب هيجل لاسيما من عرفوا باليسار الهيجلي ما برحوا يكيلون النقد لفلسفة هيجل التأليهية للدولة.

٥٥/ تجاهلت الماركسية أبعاد الإنسان الروحية ودور الدين في شحذ الإنسان، مختزلة كل ذلك في بعد المادة، ولذلك تعثرت في صنع مذهب أخلاقي يعالج سؤالات فلسفة الأخلاق، فلم يكتب الآباء المؤسسون للماركسية سوى شذرات أخلاقية لا ترقى لتكوين مذهب أخلاقي للماركسية.

٥٦/ اختزل النفعيون الحياة الأخلاقية في مبدأ المنفعة، والمنفعة في حساب رياضي يقيس الملاذ والآلام. والإنسان لا تحركه مطالب المنفعة والمصلحة، بل هو كائن مركب من الخير والشر، فعنصر الخير يدفعه إلى الإيثار وتقديم الخير العمومي للمجتمع دون انتظار مردود أو نفع مادي، وبسواها تصبح علاقة الإنسان بأخيه الإنسان مجرد حسابات تجارية تسيِّرها الحسابات الرياضية.

الفهرس



الأخلاق المدنية

قصة نشوء الأخلاق المدنية في الحضارة الغربية

يتناول هذا الكتاب دراسة نشوء الأخلاق المدنية في الحضارة الغربية، من خلال وجه من أوجه الصراع الجدلي بين الأخلاق والدين، وهو وجه الانفصال بينهما، دراسة وصفية تحليلية منذ الجذور التاريخية للتأثيرات الشرقية على الحضارة اليونانية، مرورًا بنشوء مدارس الأخلاق المدنية في العصر اليوناني، ثم ما تلا ذلك من ضمور نسبي لانفصال الأخلاق عن الدين في العصر المسيحي.

فالبعث الإيطالي للأخلاق المدنية في عصر النهضة الأوروبية، الذي أدَّى لتشكل رؤى فلسفية حديثة في عصر الأنوار، وانتهاءً بنشوء المدارس الفلسفية الحديثة للأخلاق المدنية في عصر الحداثة. دون الإخلال بالأبعاد الموضوعية للدراسة من حصر لصور وأسباب وأنماط الانفصال بين الأخلاق والدين في الحضارة الغربية، ومعرفة المرجعيات التي قامت عليها الأخلاق المدنية في عصر الحداثة، وغاياتها المنشودة.

المؤلف

ISBN 978-603919005-9

SPONSORED BY بدعم من
الصندوق الثقافي
CULTURAL DEVELOPMENT FUND

أدب
adab